بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

تتمة شرح حديث سعد بن أبي وقاص "جَاءَنِي رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلا زلنا نتحدث عن حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-، لمّا مرض في سفر حجة الوداع بمكة، واستشار النبي -صلى الله عليه وسلم- في أن يتصدق بثلثي ماله، فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ذلك كثير، فقال: فالشطر، فأخبره أنه كثير، فقال: فالثلث، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الثلث، والثلث كثير))، فأقره على التصدق بهذا القدر.

وكنا نعلق على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس))، وبينا حكم النفقة في سبيل الله، وهل يدخلها الإسراف؟ وضابط الإسراف، وكذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرتَ عليها))، وذكرنا شروط قبول العمل، وهل يشترط استحضار النية في كل عمل حتى يؤجر عليه الإنسان؟ أو أنه يستثنى من هذا بعض الأشياء؟.

قال سعد -رضي الله عنه-: فقلت: يا رسول الله، أُخلَّف بعد أصحابي، يعني أبقى في مكة بسبب العلة والمرض، ويرتحلون إلى المدنية، أُخلَّف بعدهم في الدار التي هاجرت منها، قال: ((إنك لن تُخلَّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة))، ومعنى ذلك أن الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته إلى آخر نفس مطالب بالعمل الصالح، ليرتقي درجات عند الله -تبارك وتعالى-، وسواء طال عمره أو قصر، ونحن نعرف أن بعض السلف كان عند الموت إذا سمع حديثاً دعا بالدواة والقلم وكتبه، ويقال له: حتى في هذه الحال؟

والإمام أحمد -رحمه الله- كان يئن في مرض الموت، فقال له بعض من حضره: إن الأنين يكتب، فما أنَّ حتى مات، فكانوا يستحضرون ذلك جميعاً حتى مع اشتداد المرض.

يقول: ((ولعلك أن تُخلَّف حتى ينتفع بك أقوام ويُضر بك آخرون))، وهذا هو الذي حصل، حيث طال عمر سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-، وبقي إلى سنة ثمان وخمسين تقريباً، وقيل: إنه آخر من مات من المهاجرين في المدينة، وخُلِّف فانتفع به أقوام، وانتفع به أهل الإسلام انتفاعاً كثيراً، فكان قائداً من قادة المسلمين الذين ثلّوا عروش فارس، ومعلوم خبره حينما كان في القادسية، ولما دخلوا المدائن وعبروا الجسر على الخيل والإبل، عبروا الماء -بعد تدمير الجسور- على الخيل والإبل، لأن سعداً -رضي الله تعالى عنه- قيل له: إنك إن تباطأت عن المدائن وهي مقر كسرى ثلاثة أيام حمل الفرس ما فيها من الذهب والنفائس، وخرجوا منها، فلم يجد شيئاً يركبه الجيش، فشاور بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما نظروا

في حال الجيش وما هم عليه من التُّقى، والتوكل على الله -جل جلاله- والتزام حدود الله اقتحموا الماء، وساروا على دجلة على الإبل والخيل، ولم يغرق لهم شيء، وإنما سقط سقاء لرجل منهم، كانت علاقته رديئة فانقطعت، فقال الرجل: لا والله لا ينجو جيش بأكمله ويهلك لي متاع، فحمله الماء حتى ألقاه إليهم.

هكذا يفعل التوكل على الله -جل جلاله-، فسعد -رضي الله تعالى عنه- كان يمشي على الماء مع سلمان الفارسي، على دوابهم، فقال له سلمان: قد ذللت لهم الأرض والبحر، وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وليخرجن منه أفواجاً.

فهذا هو سعد مجاب الدعوة، وقد ذكرت لكم طرفاً من خبره، فنفع الله به أهل الإسلام، وكبت به أهل الكفر، وكان سقوط مملكة فارس على يده، هو الذي دخل المدائن ودخل إيوان كسرى، وأخذ تاجه وسواريه، وأخذ متاعه وما عنده من الكنوز، وأرسلت إلى المدينة بكميات لا يُقادَر قدرها من الذهب والفضة والجواهر.

يقول: ((اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم))، أي: أن المهاجر إذا انتقل من دار هجرته إلى مكان آخر كان يكره له أن يموت في مكانه الذي هاجر منه، وهذا الذي جعل سعد -رضي الله تعالى عنه- يقلق ويحزن وينزعج.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم، لكنِ البائسُ سعدُ بن خولة))، قيل: إنه لم يهاجر أصلاً، أسلم وبقي في مكة ومات فيها، وبعضهم يقول: إنه هاجر وشهد مع النبي -صلى الله عليه وسلم- غزوة بدر، ثم بعد ذلك رجع إلى مكة واستقر بها حتى مات، وبعضهم يقول: إنه هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية وشهد بدراً وغيرها، وتوفي بمكة في عام حجة الوداع، مرض وتوفي، بعضهم يقول: توفي بمكة في آخر عام ست من الهجرة، فالله تعالى أعلم، المقصود أنه مات في مكة، في الدار التي هاجر منها.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يرثي لحاله، يقول: ((ولكنِ البائسُ سعدُ بن خولة، يَرثِي له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن مات بمكة)) متفق عليه.

هذا، وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.